

خلق السّماء في الخطاب القرآنيّ بين المجاز والإعجاز: مقارنة بلاغيّة-لسانيّة في ضوء التّطور العلميّ.

Metaphorical Models of the Creation of the Heavens in the Qur'anic Discourse: A Mystical Linguistic Study

إبتسام بن خراف

تفاحة لعرابة *

جامعة باتنة 1

جامعة باتنة 1

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

ibtissem.benkheraf@univ-batna.dztoufaha.laaraba@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2025-12-21

تاريخ الإرسال: 2025-10-31

ملخص:

تتناول هذه الدّراسة نماذج مجازيّة لخلق السّماء في الخطاب القرآنيّ، مستنطقة بلاغتها للكشف عمّا وراء الصّورة من أنساق إدراكيّة عميقة، وقد اعتمدت المنهجين الوصفيّ والتحليليّ، جامعة بين البلاغة التّراثيّة عند الجرجانيّ و الزّمخشريّ، والمقاربات اللّسانية الحديثة لتمام حسان، والرّؤى العلميّة المعاصرة لزغلول التّجار، قصد إبراز التّفاعل بين المجاز القرآنيّ والمعرفة الكونيّة. وقد عالجت الدّراسة الآيات المجازيّة التي تتحدّث عن خلق السّماء: من البناء والنّسيج، إلى الزّوال والطّي، وانتهت إلى أنّ هذه الصّور ليست مجرد زخارف بلاغيّة، بل أنظمة محكمة بنيويّة تمنح النّصّ القرآنيّ مرونة دلاليّة في أبعاده البيانيّة والعلميّة، ممّا يعكس طابعه الإعجازي المتجدّد. الكلمات المفتاحية: خطاب قرآنيّ؛ مجاز لغويّ؛ خلق السّماء؛ لسانيات عرفانية؛ إعجاز بيانيّ وعلميّ.

Abstract:

This study examines the metaphorical models of the creation of the heavens in the Qur'anic discourse to reveal the deep cognitive patterns underlying its rhetoric. The research adopts both descriptive and analytical approaches, integrating the classical rhetoric of Al-Zamakhshari and Al-Jurjani with the modern linguistic perspectives of Tamam Hassan, alongside the contemporary scientific insights of Zaghoul Al-Naggar, to highlight the interaction between Qur'anic expression and scientific knowledge. The analysis focuses on key models: construction, weaving, preservation, and the concepts of decline and folding. The findings show that these models are not mere rhetorical embellishments but cognitive systems that grant the

*- المؤلّف المُراسل.

خلق السَّماء في الخطاب القرآني بين المجاز والإعجاز: مقارنة بلاغية-لسانية في ضوء التطور العلمي.

Qur'anic text semantic flexibility, reflecting its renewed miraculous nature in both rhetorical and scientific dimensions.

Keywords: Qur'anic discourse; linguistic metaphor; creation of the heavens; mystical linguistics; rhetorical and scientific miracle.

مقدمة:

يُعَدُّ المجازُ اللُّغويُّ في آياتِ خلقِ السَّماءاتِ ومفتاحًا لفهم الإعجازِ القرآنيِّ، إذ يجمعُ بينَ البيانِ والدَّلالةِ التي تُفَعِّلُ طاقاتِ التَّأَمُّلِ العقليِّ في نصِّ إلهيٍّ متفردٍ، حيث تتأزُّرُ الصُّورةُ البلاغيةُ والعلميةُ للمجاز لتشكل رؤيةً عرفانيةً تُقَرِّبُ المعنى الغيبيَّ إلى الذَّهنِ الإنسانيِّ المحدود، ومن هنا تنبثقُ هذه الدِّراسةُ لكشفِ السِّتارِ عن إشكاليَّةِ البحثِ المركزيَّةِ الآتية:

- كيفَ يسهُمُ المجازُ اللُّغويُّ في بناءِ الدَّلالةِ القرآنيَّةِ المتعلِّقةِ بخلقِ السَّماءاتِ، فيُعَبِّرُ عن أبعادٍ معرفيَّةٍ تتجاوزُ حدودَ المعنى الظَّاهرِ إلى معنى المعنى في إطارِ مناهجٍ تحليليَّةٍ متنوعة؟ ومن هذه الإشكاليَّةِ تتفرَّعُ فرضياتٌ عدَّةٌ، أبرزُها:

إنَّ المجازَ في آياتِ الخلقِ ليس مجردَ تزيينٍ بلاغيٍّ، بل هو نسقٌ معرفيٌّ يحملُ رؤيةً متكاملةً؛ وإنَّ تنوعَ أساليبه يُجسِّدُ تباينَ مستوياتِ الإدراكِ للظواهرِ الكونيَّةِ؛ وإنَّ دراسةَ هذه المجازاتِ في ضوءِ المناهجِ البلاغيَّةِ واللِّسانيَّةِ والعرفانيَّةِ تُسهِمُ في الكشفِ عن عمقِ العلاقةِ بينَ البيانِ القرآنيِّ وتحليلاتِ الفكرِ الإنسانيِّ المختلفةِ.

وقد استندت للإجابة عن الإشكالية إلى أربعة مناهجٍ متكاملةٍ تمثلُ اتجاهاتٍ كبرى في دراسة النصِّ القرآنيِّ حيث اعتمدت على:

أولاً: المنهج التحليلي عند الجرجاني (ت471هـ) الذي كشف عن سرِّ الإعجاز في التناسق بين النظم لتوليد الدلالة؛ وقد استدل بآيات خلق السماء لبيان أن نظم الكلمات وترتيبها هو الذي يخلق الإعجاز القرآني.

ثانياً: المنهج اللساني الوصفي عند تمام حسَّان (ت2011م) الذي ينظر إلى المجاز بوصفه بنيةً لغويَّةً متكاملٌ فيها الوظيفةُ التعبيريَّةُ مع البنية الدلاليَّةُ ضمن سياق واحد.

ثالثاً: المنهج البياني التفسيري الذي تميَّز به الزمخشري (ت538هـ) حيث جعل من المجاز أداةً لإيضاح مرامي الخطاب القرآني في ضوء السِّياق والمعنى.

وأخيراً المنهج العلميّ عند زغلول النّجار الّذي يُبرزُ جانبَ الإعجاز العلميّ في آياتِ خلق السّماء.

وقد قدّم تَمّام حسان على الرّمخشري استناداً إلى تقارب وجهة نظره مع الجرجاني؛ كونهما يستقيان من معين واحد: الانتقال من المبني للبحث عن المعنى.

ومن خلالِ تضافرِ هذه المناهج والاستعانة بمحلل رقمي ، تسعى الدّراسة إلى بناءِ قراءةٍ جديدةٍ للمجازِ القرآنيّ بوصفه ظاهرةً لغويّةً تتجاوزُ حدودَ الرّينة اللّفظيّة، فتصلُ اللّغة بالفكر ، واللّفظ بالدّلالة، فتولّد تأملاً في ملكوت السّماوات وتدرّجاً في آيات الله المسطورة والمنظورة.

1. المجاز اللّغوي: ماهيته وأضرابه:

تقوم اللّغة العربيّة على نظامٍ دلاليّ بالغ الدقّة، يُتيح للمتكلم التّنقّل بين مستويين من الاستعمال: الحقيقة والمجاز، بحسب ما يقتضيه المقام والسّياق؛ فالحقيقةُ استعمالُ اللفظ فيما وُضع له أصلاً، كقولنا: أشرقَت الشّمس أو أثار القمرُ، أمّا المجاز فهو استعمالُ اللفظ في غير ما وُضع له لعلاقةٍ تربطه بالمعنى الأصلي، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الحقيقيّ.

ومن ثَمّ يمكن القول إنّ المجاز اللّغوي أداةٌ لتوسيع وتفجير طاقات اللّغة الإيحائيّة والتعبيريّة¹، إذ ينقل اللفظ من الدّلالة المألوفة إلى أخرى أكثر عمقاً وثراءً، و يسمح بتوسيعها إلى معنى آخر تفرضه علاقة ذهنيّة أو سياقية، فيعبّر عن الفكرة بلغة تتجاوز الظّاهر إلى العمق الشّعوري والفكريّ، وينقسم المجاز من حيث علاقته بالمعنى، إلى قسمين رئيسين:

- ما يقوم على المشابهة: ويدخل فيه الاستعارة الّتي تعدّ ذروة المجاز وأبرز صوره وأحد وجوه الإعجاز البلاغيّ في القرآن الكريم؛ فهي تُحوّل المعاني المجردة إلى صورٍ محسوسة تنبض بالحياة والإيحاء²، وتنقسم إلى:

¹ ينظر: الجرجاني عبد القاهر ، 1981م، أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، القاهرة، ص

² ينظر: القزويني الخطيب ، 1993م، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 245 .

خلق السَّماء في الخطاب القرآني بين المجاز والإعجاز: مقارنة بلاغية-لسانية في ضوء التطور العلمي.

1 استعارة تصريحية: وهي تشبيه بليغ حُذف منه المشبّه وصُرحَ بالمشبّه به، نحو قولنا: أخرجنا الله من الظُّلمات إلى النُّور بفضلِه.

2 استعارة مكنية: وهي تشبيه بليغ حُذف منه المشبّه به وُزِمَ إليه بقرينة تدلّ عليه، كقولنا: جادَ البحر بخيراته، حيث شُبّه البحر بالرجل الكريم، فذكر المشبّه البحر، وحذف المشبّه به الرجل الكريم، وأبقي على لازم من لوازمه (جاد) على سبيل الاستعارة المكنية.

- مالا يقوم على المشابهة: وهنا يتم رصد المجاز المرسل الذي يعتمد على نظام العلائق التي نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر: السببية، والمسببية، والحالية، والزمانية، واعتبار ماكان، واعتبار ما يكون...

وتفصيل ذلك مبثوث في ثنايا كتب البلاغة، وسيتم التمثيل لبعضها في الجزء التطبيقي. ولأنّ المجاز أداة الإنسان لتصوير الحقيقة في صورة أسمى وبلغة أبلغ، فقد كان للمجاز القرآني أثرٌ عميق في بناء الدلالة وإظهار الإعجاز فيه.

2.1. الإعجازان البياني والعلمي في القرآن الكريم:

يعد التطور التكنولوجي الحديث ترسانة للبحث والتقصي في عجائب الكون وما حواه من أسرار جذبت العقل البشري لفكّ شيفرة رموزه، ممّا دعاه للتفكير وإنتاج نظريات علمية وقوانين أثبت معظمها وجود خالق مبدع لهذا الكون، وقد حاول علماء الغرب على مرّ العقود هتك ستر القرآن الكريم تحديًا لسحر بيانه، وتصديًا لقوة سلطانه، فما كان لهم إلا الاستسلام له، لاسيما حين انفلتت منهم النظريات وسجدت لحقائقه الساطعة ألبائهم وبهتوا لإعجازه البياني والعلمي...

أ- الإعجاز البياني للقرآن الكريم:

إنّ الشق الأول للإعجاز القرآني ليظهر جليًا في بديع رصف حروفه وجزالة ألفاظه، وبلاغة أسلوبه، ومتانة سبكه، وتنوع مواضعه واهتماماته، فقد نزل بلسان عربيّ مبين؛ وتحدى منزله كلًّا من الإنس والجنّ أن يأتوا بمثله أو بعشر سور منه أو آية تضارع آياته؛ لكن لم يفلحوا، وأنّى لهم ذلك وهو نظمٌ لا إلى قبيل الشعر يتنعي ولا إلى النثر، وفي هذا الصّد يقول

أبو بكر الباقلاني: "إنَّ أَقْلَ ما يُعْجَزُ عنه من القرآن السُّورة، قصيرة كانت أو طويلة، ¹؛ فنظام علائقها الصَّوتية والبلاغية والنَّحوية لا يشوبها ريب ولا يعترها عيب ولا قدرة لأحد أن يجاريه.

ب- الإعجاز العلمي:

يقصد به " إخبارُ القرآن الكريم أو السُّنَّة النبوية بحقيقة أثبتَّها العلمُ التجريبيُّ، وثبتَّ عدمُ إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرِّسُولِ صلى الله عليه وسلم ².

وليقال عن آية قرآنية إنها تحوي إعجازاً علمياً لا بدَّ من استقائها الشُّروط التالية:

- أن تكون دلالة الآية واضحة، لا تحتاج إلى التَّكَلُّف في التَّأويل الذي قد يخرجها عن السَّياق الألسني المعتاد عليه من قبل العرب.

- أن تدلَّ الآية على حقيقة علمية وليس فرضية علمية، لأن إسقاط الفرضيات العلمية على القرآن يكون فيه من الإنقاص لإعجازه ما لا يُرضى.

- أن لا تكون الحقيقة معلومة قبل زمن الرِّسُولِ عليه الصَّلاة والسَّلام، فلو كانت معروفة آنذاك لن يصبح للقرآن سبق علمي حتى يكون معجزاً ³.

وعليه فإنَّ القرآن جمع بين الإعجازين البياني والعلمي ولا يمكن لأحد مهما بلغ من العلم والبلاغة والدَّهاء أن يطمس هذا الأمر أو أن يشوَّهه.

¹ الباقلاني أبو بكر ، دت، إعجاز القرآن للباقلاني، ط5، دار المعارف، مصر، ص 254.

² ينظر: المصلح عبد الله عبد العزيز والصاوي عبد الجواد ، 1429 هـ - 2008 م، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (منهج التدريس الجامعي) ، ط1، دار جياذ للنشر والتوزيع ، ص 28.

³ ينظر: موقع المنير ، مقال حول المجاز العلمي في القرآن الكريم.

<https://almoneer.org/?act=art&id=2000> ، يوم 2022/08/07 م.

2- المجاز واللّسانيات العرفانية ثنائية لاتنفصل:

1.2. اللّسانيات العرفانية:

يقصد بها علماء اللّسان "تيارا لسانيا حديث النّشأة، يقوم على دراسة العلاقة بين اللّغة البشرية والدّهن والتّجربة"¹ الاجتماعية و البيئية؛ وقد استحدث لمعرفة كيفية قيام الدّماغ بالنّشاط اللّغوي إنتاجا وتأيلا .

2.2. كيف تترجم اللّسانيات السيالة المجازة:

إنّ القدرة على الإبداع والخلق اللّغويّ يظهر جليّاً في الاستطاعة على التّوليد والتّحويل والاشتقاق، أي توليد عبارات وجمل من مفردات محدودة قد يخرجها من مجرد التّعبير الحقيقي إلى تعابير مجازيّة تتلاعب بألفاظ حقيقية لزيادة الكلام تفردا وجمالا .

ولاستيعابه سواء أكان حقيقياً أم مجازياً لا بدّ من التّطرق إلى التّصور الدّهني الذي يستشفه الدّماغ من الكلام الواصل إليه أو المراد إرساله إلى المستمع، وهذا التّصور يعود أساساً إلى طبيعة الكلام المتداول في اللّغة المشتركة ضمن الإطار الجغرافي الواحد ، فعلى سبيل المثال لو قلنا "وقف زيد" يتخيّل المتكلّم أو المستمع فعل الوقوف في ساحته البصريّة وفقاً للتّصور الواقعي الذي سجله مسبقاً في ذهنه ليسترجعه مرة أخرى في المواقف المشابهة له، ثمّ يرسم فيها كذلك ما يستحضره عن زيد هذا الذي خُزنت صورته كدالٍ يوافق مدلولاً رصف معه في الذاكرة، فيبنى المشهد بدمج الدالين بالمدلولين معاً في سياق واحد.

هذا بالنّسبة للكلام الحقيقي، ومن المفترض أن المجازيّ من القول يقوم على الوتيرة نفسها، ولكن حال التّرجمة التّصوريّة في الدّهن يكون على مرحلتين، الأولى الفهم السيّاقى للكلام، أي وفق المبنى المقترح ليتم تأويله لاحقاً كمرحلة ثانية وفق نظريتي:

¹ ينظر: بن غريبة عبد الجبار، 2010م، مدخل إلى النّحو العرفاني (نظرية رونالد لانفاكر)، ط1، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، وحدة بحث تحديد التّعليم والدراسات اللّسانية في العربية، مسكيلاني للنشر والتوزيع، ص 30-31 .

- الاستعارة: بشقيها التّصريحية والمكنية، فإستنادا إلى اللّأزمة المتروكة أو ما يسعى القرينة الدّالة على المحذوف (المشبه/ المشبه به) ؛ يغزل المتكلّم أو المستمع تشبيها تامّا ليعيد هيكلته باللباس المستعار له ثوب المستعار منه، نحو قولنا: زغردت الرّيح: فالمرسل والمتلقي كلاهما يخطر لهما التّصور الأول، ألا هو فعل الرّغردة الذي ترسخ عنده على أنّه: الصّوت الذي تصدره المرأة حال المسرّات بتحريك لسانها بطريقة متتالية لينبثق عنه صوت اعتادته أذنه من نساء قومه ، ثمّ يتهيأ له مدلول الرّيح فيجد في نفسه غرابة حين الجمع بين هذين اللفظين، ثمّ يعقد مشابهة بين الرّيح وصاحب القرينة النّساء، ليتيقن بعد ذلك أنّه تعبير مجازي يقوم على المشابهة بين طرفين المشبه به فيه محذوف.

- المجاز المرسل:

يكون المستمع أو المتكلّم على دراية تامة أنّ الجملة فيها نوعٌ من المجاز، لا يقوم على المشابهة بين طرفين البتة، بل هناك علاقة طردية بين عناصر الجملة يمكن تأويلها من خلال المكتسبات اللّغوية والمقام الذي قيلت فيه، فمثلا: لو قال أحدهم: شربت ماء النّيل، لتبادر إلى الأذهان أنّه ليس من الممكن أن يكون صاحب القول قد شرب ماء النّيل كلّهُ إنّما جزءا منه؛ فيدرك أن لفظة ماء هنا استخدمت للدّلالة على جزء ولو فهمت على الحقيقة لدّت على الكلّ، وعليه فاللّغة المجازية تتطلب من المتكلّم و المستمع معا استحداث دلالات بعيدة ولو بشكل نسبي عن الدّلالة المحتفظ بها أو المنقوشة في خلدّه من اللّغة الّتي يستخدمها، وهذا ما يمكن وصفه بالاستحداث الدّلالي المفترض الخاضع للسياق الّذي يترجم ما يرمي إليه المتكلّم حال إنتاجه للّغة.

مما سبق يمكن القول إنّ اللّسانيات العرفانية لا تتعامل مع اللّغة تعاملًا خطيًّا آليًّا، بل تترجمها ضمن عمليات معرفية معقدة تجمع بين الحسّ والتّصور والتأويل، جاءت لتكشف كُنه البنية الإدراكية الكامنة خلف التّعبير الإنسانيّ بشقيه الحقيقيّ والمجازي، وهذا ما ينسحب على القرآن الكريم وإعجازه البيانيّ الّذي قد يرسم نمطا آخر من الإعجاز ألا وهو الإعجاز العلميّ.

3. الإطار التّطبيقي:

إنّ المتفكّر في ملكوت الله سبحانه وتعالى، ليرى العجب في بديع صنعه، وعظمة قدرته التي يمكن رصدها بالعين المجردة في مخلوقاته، ولعل أعظمها السّماء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم:

- 190 مرة بصيغة الجمع (السّماوات)، من بينها 72 موضعاً مصاحبة للأرض.

- 120 مرة بصيغة المفرد، منها 19 مرة مقترناً بالأرض.

والمتفحص لمعنى الكلمة في المعاجم اللّغوية ليجدها لا تخرج من نطاق السّمو والعلو؛ فالعرب قديماً كانوا يستعملونها للدلالة على ذلك حتى أنّهم جعلوا موطن سراج الفرس؛ أي ظهره بمسمى السّماء لارتفاعه، بينما استعملها الله في كتابه الذي لا ينطق عن الهوى ولا يسجد الخطأ والزّلل بين دفتيه لتدلّ على:

معنى السّقف، السّحاب، المطر، معنى السّماء نفسها، الفضاء، الهواء وسماوات الجنّة كذلك.¹ ولأنّها معجزة أبهرت العلماء الذين تتبّعوا النّشأة الأولى للكون - والذي من ضمنه السّماوات والأرض - دعّتهم للبحث عن إجابة مقنعة لمجموع التّساؤلات التي غزت عقولهم لفترات ليست بقليلة، وقد بنوا لذلك نظريات عدّة تلتها وتواترتها الكتب والألسن على مرّ العصور، ويمكن تقسيم نشأة السّماوات إلى مراحل متواترة على النّحو الآتي:

1.3. شأّة السّماوات وتوسّعها:

أ- مرحلة الفتق بعد الرّتق:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾².
أولاً: التّحليل البنيويّ السّياقي (منهج الجرجاني/ تمام حسان):

¹ ينظر: إسلام ويب، لفظ السّماء في القرآن، <https://www.islamweb.net/ar/article/174469>، يوم

2023/01/17م.

² الأنبياء/ 30

إنَّ المتمعّن في نظرية النّظم للجرجاني يدرك إمكانية إسقاطها على الآية السّابقة ليلاحظ أنّها مستفتحة بسؤال استنكاريّ "أولم" مردفاً بالفعل المتعديّ "يز" الذي يدلّ على الرّؤية القلبية العقلية لا البصرية، لأنّ ما يُراد إدراكه هنا هو الحقيقة الكونية لا الصّورة الحسية¹ أمّا في قوله "كانتا رتقاً"، نلاحظ أن الجملة الفعلية جاءت بصيغة الماضي الناقص، ف"الرتق" يوحي بالانغلاق والاتّحاد.

ثم جاءت الفاء في قوله "ففتقناهما" لتُحدث دلالة المفاجأة الزمنية، وتحوّل السكون إلى حركة، والإلتحام إلى انفصال.

ويمكن توظيف رؤية تَمَام حَسَن التي تقوم على أنّ الكلمة لا تُفهم إلّا في شبكة علاقاتها النّصية؛ ف"السّموات والأرض" تمثّلان قطبي الكيان الكونيّ، و"الرتق/الفتق" قطبي الحركة والتحوّل.

ومن ثمّ فالنّص يقدّم بناءً دلاليّاً يقوم على ثنائية (السّكون/الحركة)، (الاتحاد/الانفصال)، مما يكون نسقاً لغويّاً متكاملًا يعبر عن ديناميكية الخلق² وهذا ما يُسمّيه تَمَام حَسَن "المعنى التّركيبي" الذي لا يُدرك إلّا بتأمل الروابط بين البنى، لا الألفاظ مفردة.

ثانيًا: الدّلالة المجازيّة (منهج الزّمخشري):

يُقرّ الزّمخشري أنّ في قوله "كانتا رتقًا ففتقناهما" مجازًا تمثيليّاً؛ لأنّ الرّتق والفتق في أصل اللّغة وصفان ماديّان للثّوب أو الجسد، استُعيرتا لتصوير تماسك عناصر الكون ثمّ انفصالها.³ إنّ هذا النّقل يُحوّل الألفاظ إلى رموز دلالية تكشف عن قانون الوجود في صورته البلاغية؛ فالمجاز هنا ليس خروجاً عن الحقيقة، بل وسيلة لإدراكها بعمق وجدانيّ وبصيرة عقلية.

¹ ينظر: الجرجاني عبد القاهر، 1992م، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ص 78-82.

² ينظر: تَمَام حَسَن، 2000م، اللّغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ص 212-214.

³ ينظر: الزّمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد، دت، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 170.

ثالثاً: الإعجاز العلميّ (منهج زغلول النّجار)

يرى زغلول النّجار أنّ الآية من أوضح الإشارات إلى نظريّة الانفجار العظيم، إذ كان الكون في حالة رتق، أي مادة متماسكة شديدة الكثافة، ثمّ فُتق بانفجارٍ مهولٍ فكوّنت بذلك السّماوات والأرض.¹

ب- مرحلة الدّخان:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾²

أولاً: التّحليل البنيويّ السّياقيّ:

إذا طبقنا نظريات كلّ من الجرجاني وتّمّام حسّان على الآية نجدها ابتدأت بحرف العطف "ثمّ" للدّلالة على تسلسل الأحداث وترابطٍ زمنيّ لمرحلة سابقة (الرتق / الفتق) تليها هذه المرحلة الّتي بدورها تسوقنا إلى فعل وفاعل يحقق حركة الكائنات الكونيّة، مع التّركيز على الفاعل المستتر "الله" الموصوف بالقدرة الكاملة في قوله: "استوى إلى السّماء". في حين قوله: "وهي دخان": حال تصف الكون في بدايته، فالواو هنا واو الحال تليها جملة اسمية في محل نصب.

رمزيّاً يمكن اختصار البناء كما يلي:

تطور الكون من حالة بدائية إلى نظام كونيّ = ظرف تتابع (ثمّ) + فعل الاستواء (استوى) + جار ومجرور سد مسد المفعول (السّماء) + حال (وهي دخان)
فهنا إشارة واضحة لانتقال الكون من الفوضى إلى النّظام، فالجمل مرتبطة ومرتبّة ترتيبيّاً زمنياً، ما يحقّق ما يسميه الجرجاني "انسجام المبنى والمعنى"³.

ثانياً: الدّلالة المجازية:

¹نظر: النّجار زغلول، 2004م، من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ص 45-47

²فصلت/ 11.

³تّمّام حسّان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص 152-155.

السّياق البلاغي يجعل الاستواء والفعل الإلهي مركزًا ومؤكّدا على القدرة والهيمنة الإلهيّة على الكون منذ بدايته.

فقد وضّح الزّمخشري أن "الدّخان" استعارة تصويريّة لحالة المادة الكونيّة في مرحلة النّشوء، أي أنّها مادة أولية غير متميزة بعد.¹

والجمع بين "استوى" و"دخان" يمثّل تشبيهاً تمثيليّاً: السّماء هنا ليست دخاناً حرفيّاً، بل صورة ذهنيّة لتوضيح حالة أوليّة للكون قبل انتظامه.

كما يمكن اعتباره مجازاً مرسلًا علاقته اعتبار ماكان (أصل السّماء دخان)، أي الانتقال من حالة بدائية غامضة (الدّخان) إلى ترتيب مهيكّل (السّماء).

ثالثاً: التّحليل العلمي والعرفانيّ عند زغلول النّجار:

زغلول النّجار يربط هذه الآية بـ (النّشوء الكونيّ) في مرحلة الغبار والغازات قبل التشكّل النجمي²

فالمقصود بـ "الدخان" الغازات الأولى التي تكوّنت منها النّجوم والكواكب.

وعليه من خلال السّياق والدّلالة المجازيّة فالآية تجمع بين الواقع العلميّ والصورة البلاغيّة:

الدخان = المادة البدائية، الاستواء = التّنظيم الإلهيّ.



1-صورة للدّخان الكونيّ (غازات كونيّة)

¹ ينظر: الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد، 1987م، الكشاف عن حقائق التنزيل، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 302.

² ينظر: النّجار زغلول، من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ص 98-102.

خلق السَّماء في الخطاب القرآني بين المجاز والإعجاز: مقاربة بلاغية-لسانية في ضوء التطور العلمي.

فالسِّيَاق القرآني هنا يربط هذه المرحلة بالخلق الأول، ويبيئ الأرض والسَّماء لاستقبال الحياة والنَّظام.

ج- مرحلة التَّوسع:

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾¹.

أولاً: التَّحليل البنيوي السِّيَاق:

نلاحظ أن النَّظْم في هذه الآية قائم على علاقة التَّركيب البلاغي الذي يربط بين الفعل (بَنَيْنَاهَا) والمفعول «السَّمَاء»، ثم الجار والمجرور «بِأَيْدٍ»، وأخيراً الجملة الاسمية (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)²

يمكن تمثيل العلاقة الرمزية للنَّظْم كالآتي:

فعل + مفعول + جار ومجرور → جملة اسمية مؤكدة.

أي: بناءً مُحكَّم + قدرة فائقة = توسع مستمر

فالنَّظْم هنا يجمع بين القوة في المبنى والاستمرار في المعنى، فالفعل «بَنَيْنَاهَا» يوحى بالإحكام والقصد، و(لَمُوسِعُونَ) تدل على الامتداد الزماني المتجدد.

بهذا تتحقَّق علاقة التَّلَازم بين قوة البنية النحويَّة (المبنى) وامتداد الفعل الكوني (المعنى)، في انسجام تام مع مبدأ الجرجاني في أن "اللفظ على قدر المعنى"³

ووافقت رؤية تَمَام حَسَّان ذلك، فالتركيب في هذه الآية يظهر النَّسق الدَّلالي المحوري حيث تتكامل الحقول الدَّلالية في إطار التَّوازن بين العلاقات النحويَّة⁴: البناء (فعل إيجاد) + القوة (وسيلة الإنشاء) + التَّوسع (النتيجة المستمرة).

وعليه فالمعنى يتدرج من الإيجاد إلى الامتداد، وهو تدرج زمني دلالي يتطابق مع معنى التَّوسع الكوني.

¹ الذاريات/ 47.

² ينظر: الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 113.

³ ينظر: المصدر نفسه، ص 125.

⁴ تمام حسان، اللُّغة العربية معناها ومبناها، ص 198.

ثانيًا: التَّحْلِيلُ البَلاغِيّ عِنْدَ الرَّمْخَشَرِيِّ:

يقول الرَّمْخَشَرِيُّ فِي الكَشَافِ إِنْ قَوْلَهُ تَعَالَى «بَإَيِّدٍ» أَيْ «بِقُوَّةٍ وَقُدْرَةٍ»¹، فَهُوَ مُجَازٌ عَنِ الصِّفَةِ لَا عَنِ الْجَارِحَةِ، وَالمُجَازُ هُنَا مِنْ بَابِ الاسْتِعَارَةِ المَكْنِيَّةِ الَّتِي حُذِفَ فِيهَا المُشَبَّهُ بِهِ وَأُبْقِيَ شَيْءٌ مِنْ لَوَازِمِهِ.

وَيُضَيِّفُ أَنَّ التَّعْبِيرَ بِ«مُوسِعُونَ» يَحْتَمِلُ مَعْنِيَيْنِ:

1- موسعون فِي الخَلْقِ والعِطَاءِ والقُدْرَةِ.

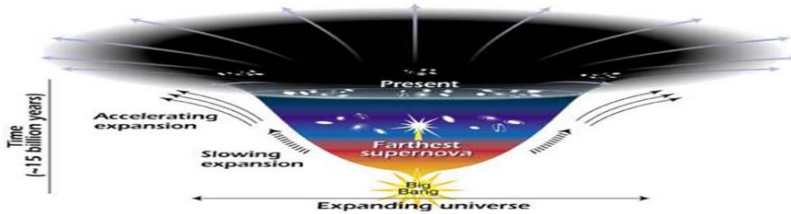
2- موسعون فِي السَّمَاءِ ذَاتَهَا، أَيْ نَجْعَلُهَا مُتَّسِعَةً.

فَجَمَعَ النَّصُّ بَيْنَ المُجَازِ فِي اللَّفْظِ وَالاِحْتِمَالِ الدَّلَالِيِّ فِي السِّيَاقِ، وَهُوَ مِنْ خِصَائِصِ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الَّتِي يَتِيحُ تَعَدُّدُ الدَّلَالَةِ دُونَ اضْطِرَابِ.

ثالثًا: التَّحْلِيلُ العِلْمِيّ عِنْدَ زَغَلُولِ النِّجَارِ:

يُفَسِّرُ الدَّكْتُورُ زَغَلُولُ النِّجَارُ هَذِهِ الْآيَةَ بِأَنَّهَا إِشَارَةٌ دَقِيقَةٌ إِلَى اتِّسَاعِ الكَوْنِ المُسْتَمَرِّ الَّذِي لَمْ يُكْتَشَفْ إِلَّا فِي القَرْنِ العِشْرِينَ بَعْدَ رِصْدِ انْزِيَاكِ الطِّيفِ الكَوْنِيِّ² وَعَلَيْهِ فَلَفِظَ «مُوسِعُونَ» عَلَى وَزْنِ اسْمِ الْفَاعِلِ الدَّالِّ عَلَى الاسْتِمْرَارِ، مِمَّا يَشِيرُ إِلَى أَنَّ عَمَلِيَّةَ التَّوَسُّعِ لَيْسَتْ مَاضِيَّةً فَحَسَبَ، بَلْ قَائِمَةٌ إِلَى الْآنِ.

أَمَّا قَوْلُهُ «بَنَيْنَاهَا بِأَيِّدٍ» فَيَعْبَسُ مَفْهُومَ الإِحْكَامِ وَالتَّوَازُنِ فِي الْقُوَى الكَوْنِيَّةِ — مِنْ الجَازِبِيَّةِ إِلَى الطَّاقَةِ النُّوَوِيَّةِ — فِي نَسْقٍ دَالٍّ عَلَى القُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ الْإِبْدَاعِ وَالْإِتْقَانِ.



¹ ينظر: الرَّمْخَشَرِيُّ أَبُو القَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، دت، الكَشَافُ عَنْ حَقَائِقِ التَّنْزِيلِ وَعَيُونِ الْأَقَاوِيلِ، ج4، دار الكتاب العربي، بيروت، ص32.

² ينظر: زَغَلُولُ النِّجَارِ، 2005م، الإِشَارَاتُ الكَوْنِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، دار المعرفة، بيروت، ص145.

2. صورة توضح الانفجار العظيم والتوسع الكونيّ.

فالمجاز في هذه الآية يتجلّى في نقل معنى اليد إلى القدرة، وهو مجاز مرسل علاقته السّببية، إذ إن اليد سبب في الفعل، كما في قولهم "له يد في الأمر"، أمّا في قوله: "لموسعون" فالمجاز في الإطلاق، إذ أُطلق اللفظ على الفعل المتجدد المستمر، لا على الفعل المنجز فقط. هنا ربط صريح بين الخلق والإعجاز، وبين القدرة الإلهية والامتداد الكونيّ، لتحوّل الصّورة من مشهد ماديّ إلى تصوّر عرفانيّ يوحي بأن الوجود كله في فعل خلق دائم.

2.3. من صفات السّماء:

وصف الله عزّ وجلّ السّماء في مواضع كثيرة بصفات متنوعة كالترّين بالنّجوم والكواكب، السّقف، الحفظ، الحبك...، ولأنّ الموضوع لا يتسع لدراستها جميعا اقتصرنا على صفتين: الحبك و السّقف المحفوظ .

أ- صفة الحبك:

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾¹

أولاً: التّحليل البنيويّ السّيّاق:

في هذه الآية القصيرة يتجلّى الإعجاز البيانيّ في أبهى صوره؛ إذ اجتمعت في ثلاث كلمات صورةً كونيةً كاملة.

مقسم به + صفة تصويرية = معنى دلالي متجدد أي: نظام كوني محكم → السّماء + النّسج المتشابك.

وتفصيل ذلك كالآتي:

¹ الذاريات/ 07.

• البنية النَّحْوِيَّة: تقوم على: القسم: «وَالسَّمَاءِ»، تتبعه الصِّفَّة «ذَاتِ» المعرفة بإضافة المضاف إليه «الْحُبُكِ»، لتؤسس مزاجية بين اللفظ والمعنى في موضعٍ لا يستغني فيه أحدهما عن الآخر.

والقسم في القرآن حسب الجرجاني ليس غايةً بل وسيلة لتأكيد ما بعده، وأن اختيار السَّماء موضوعاً للقسم يوحي بعظمة النَّسِيج الكوني المتناسق الذي لا فوضى فيه. ف«الْحُبُكُ» جمع «حُبْكَة» وهي النَّسِج المحكم المترابط، كقولهم "ثوب محبوب" ¹.

• البنية الصوتية: حسب تَمَام حَسَّان تكمن في تكرار الإشارة إلى السَّماء في تراكيب متنوعة التي تدل على التَّحول الدَّلالي الذي يمنح النَّص بعداً عرفانياً متدرجاً من المحسوس إلى المعقول، فمن حيث الإيقاع، تتسم الآية بتوازن صوتي واضح يعزز الصَّورة السَّمعية للنَّسِيج ² حيث: (الألف، اللام، السين، الميم، الألف، الهمزة / الذال، الألف، التاء/الألف، اللام، الحاء، الباء، الكاف)، أصوات تنسج اللفظ نسجاً، فيتحقق التَّطابق بين المبنى الصوتي والمعنى التَّصويري، وكأنَّ تكرار الألف غرزة إبرة تربط بين أطراف الثَّوب المتنوعة. ومنه فالنَّظْم هنا يتأسس على تماثل بين البنية اللفظية (التَّرابط الصوتي في حُبْك) والبنية الدَّلالية (التَّرابط الكوني في السَّماء).

ثانياً: التَّحليل البلاغي عند الرَّمخشري:

يرى الرَّمخشري في الكشَّاف أن معنى «ذَاتُ الْحُبُكِ» هو "ذات الطرائق الحسنة المحكَّمة" ، وأنها مجاز عن إحكام خلقها وجمال صنعها حيث يقول: "والحبك طرائق في السَّماء كطرائق الماء إذا ضربته الريح، أو كالوشى في الثوب" ³.
فالتَّشبيه هنا خفي، إذ شَبَّهت السَّماء بثوب منسوج بإتقان، دلالةً على التَّماثل والنَّظام.

¹ ينظر: الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 267.

² ينظر: تَمَام حَسَّان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 256.

³ ينظر: الرَّمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد، 1987م، الكشف عن حقائق التَّزِيل وعيون الأَقاويل، ج4، ص 42.

خلق السّماء في الخطاب القرآنيّ بين المجاز والإعجاز: مقارنة بلاغيّة-لسانيّة في ضوء التّطور العلميّ.

والمجاز في قوله «ذات» يُضفي على السّماء صفة الكائن الحيّ العاقل، في أسلوب يجمع بين التّشخيص والتّجسيد، ليجعلها شاهدة على خالقها.

من هنا يتجلى المجاز اللّغويّ الذي يمنح الصّورة القرآنيّة ديناميكية حسية، إذ يصير الكون نسيجاً حيّاً نابضاً بالتّناسق.

ثالثاً: التّحليل العلمي عند زغلول النّجار:

يرى الدّكتور زغلول النّجار أن هذه الآية تشير إلى ما اكتشفه العلم الحديث من أن الكون نسجٌ من المجرات والخيوط الكونية الدقيقة، فالفضاء الكوني ليس فراغاً مطلقاً، بل مليءٌ بشبكة من المجرات والغازات والغبار الكوني المتشابك على هيئة " نسيج كوني" (Cosmic Web).

وبذلك فتعبير القرآن بـ«السّماء ذات الحيك» وصف علمي دقيق لتلك البنية النّسجية الّتي لم تُكتشف إلا مؤخّراً والّتي تدل على وحدة الخلق وتناسق القوى الفيزيائية (الجاذبية، والطاقة المظلمة، والمادة المظلمة).¹



3- صورة للنسيج الكونيّ

خلاصة القول: المجاز في هذه الآية هو استعارة مكنيّة تقوم على تشبيه السّماء بالثّوب المنسوج، لتدلّ على الإحكام والاتساق، جاءت تالية قسماً ممّا يجعله وسيلة لإثبات الحقيقة لا لنقضها.

وكلّ ذلك لتجاوز المعنى المادي والإشارة إلى وحدة الوجود في شبكة المعاني، فالسّماء ليست مجرد بناء، بل كيان حيّ يعبر عن جمال التّكوين وإحكام الخلق.

¹ ينظر: النجار زغلول، الإشارات الكونية في القرآن الكريم، ص 188.

ب- السّماء سقّف محفوظ:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾¹

أولاً: التّحليل البنيويّ السّياقي:

يتجلّى في هذه الآية النّظام البيانيّ الدّقيق الّذي يربط بين عناصر التّركيب على أساس من التّناسب والملاءمة.

فالفعل «جعلنا» يدّل على الإحداث المتقن، والمفعول به «السّماء» يشير إلى المخلوق الأعلى، ثمّ جاء «سقّفًا محفوظًا» تركيبًا وصفيا يجمع بين المجاز والتّصوير.

أي أنّ البنية النّحوية تسير من الإيجاد الإلهي إلى الغاية الحافظة، في انسجام بين المبني والمعنى.

يقول الجرجاني إنّ "التّناسب بين أجزاء الكلام كالتّناسب بين أعضاء الجسد"²، والآية تمثل ذلك أتمّ تمثيل، إذ تتكامل فيها الحركة اللفظية والمعنوية لتنتج تصويرًا كونيًا جامعًا بين الإتقان والجمال.

يرى تّمّام حسان أن الآية تمثل نموذجًا لما يسميه "الرّابط الدّلالي العلائقي"³، أي علاقة السبب بالنتيجة:

السبب: جعل السماء سقّفًا محفوظًا./ النتيجة: الإعراض عن الآيات رغم وضوحها. حيث إنّ الجملة الأولى خبريّة (إظهار القدرة)، بينما الثّانية استئنافية تقريرية (إظهار الغفلة). هذا التّقابل في البنية يخدم المعنى الجدلي في الخطاب القرآني: قدرة الله تقابل جحود الإنسان.

¹ الأنبياء/ 32.

² الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 214.

³ تّمّام حسان، اللّغة العربية معناها ومبناها، ص 244.

ثانيًا: التّحليل البلاغي عند الرّمخشري:

يقول الرّمخشري في الكشف إنّ تشبيه السّماء بـ«السّقف» تشبيه تمثيليّ يُراد به تصوير الإحاطة والاستعلاء.¹

أمّا «محمفوظاً» فمجاز آخر، يُراد به الحفظ من السّقوط والانهيار، ومن اختراق الشياطين، ومن الأجسام السّماوية.

ويؤكّد أنّ المقصود بـ«الآيات» في قوله «وهم عن آياتها معرضون» العلامات الدّالة على الحكمة الإلهيّة، وهو ما يربط البلاغة بالهداية، والنّظم بالغاية.

إذاً، الرّمخشري يقرأ النص قراءة مزدوجة:

- بلاغيّة تقوم على المجاز والتّشبيه.
- هداية تقوم على الوعي بمعنى الإعراض في مقابل الدّعوة إلى النّظر.

ثالثًا: التّحليل العلمي عند زغلول النّجار:

يفسر الدكتور زغلول النّجار هذه الآية بأنّها من أعظم آيات الإعجاز العلمي في وصف طبقات الغلاف الجوي²؛ فالسّماء هنا ليست الفراغ، بل الطبّقات الغازيّة الّتي تحيط بالأرض وتحفظها من الأشعة الكونية القاتلة، والنّيازك، والتّسرب الحراري.

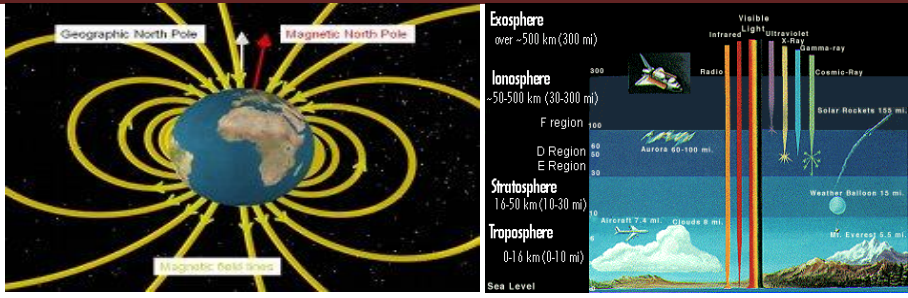
أمّا قوله «محمفوظاً» فيشير إلى نظام متكامل من القوانين الفيزيائيّة الدّقيقة الّتي تحافظ على توازن الأرض.

وعليه فإنّ لفظ «سقف» يتضمّن مجازاً علميّاً: فكما يحمي السّقف البيت، تحمي السّماء الأرض، وفي هذا المجاز تداخل بين المعنى البياني والمعنى الكوني، إذ يجمع النّص بين الإيحاء البلاغي والتّفسير العلميّ المعاصر.

¹ الرّمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ج3، دار

الكتاب العربي، بيروت، ص101.

² النّجار زغلول، الإشارات الكونية في القرآن الكريم، ص211.



4. صور توضّح حفظ طبقات الغلاف الجوي للأرض.

الخلاصة: تقوم الآية على مجاز مركّب من استعارة وتشبيه، جعلت من السّماء كياناً ذا وظيفة: الحماية.

ف«السّقف» هنا استعارة تصوّرية تُحيل إلى المفهوم العرفانيّ للحفظ الكوني، بينما «محفوظاً» وصف مجازي يعبر عن دوام القوانين الإلهيّة التي تحفظ النّظام الكوني من الفوضى، و السّياق القرآني في سورة الأنبياء يجعل من هذه الآية جزءاً من سلسلة آيات الخلق والإبداع، ليكون الإعراض في نهايتها تقابلاً مع الإعجاز في صدرها؛ وكأنّ النص يقول: إن أعظم البرهان أمامكم، ولكنكم معرضون عنه.

3- الطّيّ والنّهاية:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾¹

أولاً: التّحليل البنيويّ السّياقي:

في هذه الآية، يتجلى النّظم في بنية تعتمد التّشبيه الكلي، حيث رُكّب الفعل "نطوي" على مفعوله "السّماء"، ثمّ أتبع بتشبيه تمثيلي (كطيّ السجلّ للكتب).

فالتركيب النّحوي العام يمكن تمثيله رمزياً على النّحو الآتي:

النّظم = [ظرف زمان (يوم) + فعل مضارع مضاف إلى الفاعل (نطوي) + مفعول به (السّماء) + تشبيه (كطيّ السجلّ للكتب)] → معنى القيامة والانطواء الكوني.

¹ الأنبياء/ 104 .

خلق السَّماء في الخطاب القرآنيّ بين المجاز والإعجاز: مقارنة بلاغية-لسانية في ضوء التطور العلمي.

فيلاحظ أنّ النّظم يربط الفعل الحركي "نطوي" بالفاعل "نحن" (المستتر العائد إلى الله)، وهو فعل يفيد التّكرار والقدرة المطلقة.

كما أنّ دخول الكاف على "طي" يحقّق مبدأ المقارنة بين الحسي والمجرّد: فالطيّ الحسيّ للورق صورةٌ يُدركها الإنسان، ومنها ينتقل إلى الطّي الكوني الماورائي.

وهذا ما يسميه الجرجاني "مجاز النّظام"، حيث تتوالد المعاني من تأزّر المباني.¹ وهو ما يؤكده تمام حسان، الذي يرى الجملة القرآنية هنا ذات نظام حدثي زمني ودلالي متكامل.²

"يوم" → يحدد الإطار الزمني للحدث الكوني.

"نطوي" → فعل يدل على القدرة الإلهية والتصرف الكلي في الكون.

"السّماء" → المفعول الذي يشمل النظام الكوني كله.

"كطي السّجلّ للكتب" → أداة تشبيه تربط المعلوم بالمجهول، والمحسوس بالمجرد.

فالعلاقة الدلالية بين الفعل والفاعل والمفعول هنا علاقة تحكّم مطلق، لأنّ الطّي فعل لا يقدر عليه إلّا الخالق.

وفي البنية الزّمنية، استخدم الفعل المضارع "نطوي" رغم دلالاته المستقبلية؛ ليدل على تحقق الوعد ودوام القدرة، عكس استخدامه للماضي في قوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾، حيث الفعل المضارع يُبرز حيويّة الحدث الكوني.

ثانياً: التّحليل البلاغي عند الزّمخشري:

يقول الزّمخشري: "شُبّه طي السّماء بطي السّجلّ للكتب على سبيل التّمثيل لتقريب الصّورة إلى الأذهان"³

في رأيه أنّ الصّورة البيانية تقوم على تشبيه تمثيلي يجمع بين عنصرين:

¹ ينظر: الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 173-175.

² تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 194-198.

³ الزّمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد، الكشّاف عن حقائق التنزيل، ج 3، ص 212.

صورة حسيّة مألوفة (طَيّ السّجّل للكتب).

وصورة كونيّة غيبيّة (طَيّ السّماء يوم القيامة).

فالمجاز هنا يقوم على المشابهة في الهيئة: كما تُطوى الصّحف لتُختم وتنتهي، تُطوى السّماء بعد أن تُختتم أعمالها الكونية.

وفي السّياق البلاغيّ للآية، هذا الطّيّ ليس فناءً عبثيّاً، بل عودة إلى الأصل الإلهي، كما قال بعدها:

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾، فيتناسق الختام مع البدء، والطّيّ مع النّشر.

ثالثاً: التّحليل العلمي عند زغلول النّجار:

يفسّر زغلول النّجار هذه الآية بأنها إشارة إلى الانكماش الكوني (Big Crunch) الّذي قد ينتهي إليه الكون بعد مرحلة التّوسّع.¹

فالعلم الحديث يقول إنّ الكون في حالة تمدد منذ الانفجار العظيم، لكن قد يأتي وقت تنعكس فيه الجاذبية فتبدأ السّماء بالانطواء على ذاتها، أي: انهيار المادة والطّاقة في نقطة واحدة، وهي صورة علمية تتّسق بدقّة مع التّعبير القرآني "نطوي السّماء".

أما التّشبيه بـ "طَيّ السّجّل للكتب"، فهو تصوير مذهل للحركة الحلزونية للانكماش، إذ تُطوى صفحات الكون كما تُطوى أوراق الكتاب، فينغلق الزمن وتنتهي القصة الكونية لتبدأ مرحلة الخلود.

إنّ الآية هنا تصوّر مجازاً كونيّاً تمثيليّاً بالغ العمق:

فالطيّ ليس مجرد انكماش ماديّ، بل هو صورة لتجلّي القدرة الإلهية في الخلق والفناء والنّشور.

¹ النّجار زغلول، من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ص 221-228.

خلق السَّماء في الخطاب القرآني بين المجاز والإعجاز: مقاربة بلاغية-لسانية في ضوء التطور العلمي.

والسياق في سورة الأنبياء سياق توكيدي للبعث والجزاء، فجاء المشهد الكوني لإقامة الحجة على إمكان الإعادة، فكما يُطوى الكون فيزيائياً، يُطوى التاريخ وجودياً، وتُختتم صحيفة الحياة لتبدأ صحيفة البقاء.

الخلاصة:

إنَّ ماذهب إليه العلماء الأربعة في تفسيراتهم رغم تعدّد مشاربها إلا أنَّها تصب في بوتقة واحدة هي: كيفية قراءة الدِّماغ للنَّص القرآني بصور متنوعة لتثبت حقيقة واحدة أنَّه كلام لا ريب فيه ولا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه.

الخاتمة:

ما يلفت النَّظر أنَّ التَّعبير القرآني، على وجاهته ومجازه، يصوِّر بدقَّة مذهلة ما توصَّل إليه العلم بعد قرون، وهذا ما يُثبت أنَّ البيان القرآني قادر على الجمع بين المجاز البياني والإشارة العلميَّة في انسجام بديع، فبعد تتبُّع آيات خلق السَّماء بنيويّاً، وسياقيّاً، وبلاغياً، وعلميّاً، تبين أنَّ المجاز القرآني ليس زخرفاً لغويّاً؛ بل نظاماً معرفياً متكاملًا يجمع بين الدقَّة في المبني والعمق في المعنى، وبين جمال البيان في اللَّفظ والبرهان على الدلالة.

- فالجرجاني وتَمَّام حَسَّان كَشَفَا أنَّ النَّظْم القرآني يَحَقِّق التَّنَاسُب الكليَّ بين أجزاء الكلام كما يتحقَّق بين أجزاء الكون، إذ لكلِّ تركيبٍ موضعه الَّذي لا يقوم مقامه غيره، كما أنَّ لكلِّ كوكب مداره لا يزاحمه فيه آخر، فالمبني اللَّغوي في هذه الآيات يقوم على شبكة من العلاقات الدلالية التي تعبَّر عن نظام الكون في حركته وتوازنه.

- أمَّا الرَّمَخْشَرِي، فقد أبرز الطَّابع الجدلي في المجاز، حيث تتحوَّل الصَّورة البلاغية إلى حُجَّة على الخلق والبعث والوحي.

- ليبين زغلول النَّجار أنَّ المعاني البلاغية في الآيات السَّابقة ليست محض مجازات تخيلية، بل استبصارات علمية سبقت الاكتشاف، تشهد بأنَّ البيان القرآني ينطوي على بُعد استشرافي يجعل اللَّفظ يحتمل الدلالة العلمية دون أن يفقد عمقه الروحي.

وفي ضوء ذلك، يظهر أن المجاز في آيات السماء - من الرق والفتق إلى الطي والانكماش - يمثل جسراً بين العلم والبيان؛ فهو يُبرز انسجام الظواهر الكونية مع سنن الخطاب القرآني، ويقدم نموذجاً فريداً للوحدة بين اللغة والوجود.

التوصيات:

في ضوء النتائج التي توصلت إليها الدراسة، يمكن طرح عدة مقترحات بحثية جديدة تُعمّق الدراسة:

- 1- توسيع مجال الدراسة البلاغية ليشمل تحليل البنية المجازية في ضوء النظريات المعرفية الحديثة (الاستعارة التصويرية).
- 2- مقارنة النماذج المجازية في القرآن بالأساطير القديمة والروايات الدينية الأخرى:
 - كيف تعاملت الحضارات القديمة مع فكرة خلق السماء؟
 - ما مدى توافق التصوير القرآني مع التراث الإنساني العام؟
- 3- تأسيس قراءة عرفانية معاصرة للمجاز القرآني تُعيد للبلاغة بعدها الروحي والفكري، بعيداً عن الحصر الشكلي في الأنواع والأساليب.
- 4- اقتراح مشروع موسوعي بعنوان المجاز الكوني في القرآن الكريم، يُعنى بدراسة الصور المجازية المرتبطة بالخلق والكون والوجود في ضوء تكامل العلم والبيان.
- 5- قراءة النماذج المجازية في ضوء نظرية الحقول الدلالية ودراسة تأثير هذه النماذج في التّخيل الجمعي الإسلامي والعربيّ.
- 6- الإنزياح الدلالي في آيات الخلق وأثره في الكشف عن الإعجاز العلمي: دراسة في تفسير الشّيخ عبدالرحمن السّعديّ.

المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم.

1- الباقلاّني أبو بكر محمد بن الطيب، دت، إعجاز القرآن للباقلاني، ط5، دار المعارف، مصر.

2- بن غريبّة عبد الجبار، 2010م، مدخل إلى النّحو العرفاني (نظرية رونالد لانفاكر)، ط1، كلية الآداب والفنون والإنسانيّات بمنوبة، وحدة بحث تحديد التّعليم والدّراسات اللّسانية في العربيّة، مسكيلياني للنشر والتوزيع.

3- تمّام حسن، دت، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة.

4- الجرجاني عبد القاهر، 1992م، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.

5- الجرجاني عبد القاهر، 1981م، أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، القاهرة.

6- الزّمخشري، دت، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، ج3/4، دار الكتاب العربي، بيروت.

7- القزويني الخطيب، 2000م، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الفكر العربي، القاهرة.

8- المصلح عبد الله عبد العزيز والصّاوي عبد الجواد، 2008م، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (منهج التّدرّيس الجامعي)، ط1، دار جياّد للنّشر والتوزيع.

9- النّجار زغلول، 2005م، الإشارات الكونيّة في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت.

10- النّجار زغلول، 2004م، من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت.

المواقع:

- 1- _إسلام ويب، لفظ السماء في القرآن،
<https://www.islamweb.net/ar/article/174469>، يوم 2023/01/17م.
- 2- موقع المنير، مقال حول المجاز العلمي في القرآن الكريم،
<https://almoneer.org/?act=artc&id=2000>، وم 2022/08/07م.

